الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب
خلال القرنين 16 و17*

بقلم: الأستاذ محمد رزوق

يهدف هذا العمل إلى إبراز جانب من الحياة المؤلمة التي عاشها الأندلسيون في بلادهم بعد نهاية دولة الإسلام بها، وجعلتهم يهاجرون أفواجا أفواجا إلى هذه العدوة المغربية، ولإثارة الإنتباه إلى نقط معينة تساعد، متى تمت دراستها، على أخذ صورة متكاملة للوجود الأندلسي بالمغرب.

فمن المعلوم أن الباحثين العرب غالبا ما ركّزوا على فترة ما قبل القرن السّادس عشر إبّان فترة الوجود الإسلامي بالأندلس، نتيجة توفرهم على عدد من المصادر المتعلّقة بتلك الفترة، في حين اتّجه عدد كبير من الباحثين الأوربيين إلى دراسة تاريخ الموريسكيين بإسبانيا بعد سقوط غرناطة، فدرسوا تاريخهم من خلال وثائق محاكم التفتيش، ومن خلال أرشيفات المناطق التي استقروا فيها بإسبانيا، واعتبروا موضوع الموريسكيين موضوعا أوروبيًا قبل أن يكون موضوعا إسلاميًا.

اعتمدت هذه الدّراسة على مصادر متنوّعة، منها العربيّة (أندلسية ومغربية)، ومنها الأجنبيّة (إسبانيّة وفرنسية وإنجليزيّة).

فبالنّسبة إلى المصادر الأندلسيّة التي كتبت بعد سقوط غرناطة، نشير إلى أنّها قليلة جدّا ولا يمكن مقارنتها بالمصادر التي كتبت إبّان العهد الإسلامي بالأندلس. أمّا بالنّسبة إلى المصادر المغربيّة، فليست هناك مصادر مخصّصة للموضوع، وإنّما هناك إشارات متناثرة

(*) : عرض أطروحة دكتوراه التي ناقشها الأستاذ محمد رزّوق بتاريخ 14 يوليوز 1987 بكليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بالرّباط وطبعت بالدّار البيضاء 1989 في (361 ص).

تهمّ قضايا عديدة تتعلق بموضوع الأندلسيّين بالمغرب، ويمكن تقسيمها إلى مصادر تاريخيّة، وكتب التراجم، وكتب الرّحلات، وتواريخ المدن، والحوّالات الحبسية.

وممّا تجدر الإشارة إليه كذلك أنّ العائلات الأندلسية نفسها ليست لديها وثائق تتعلّق بموضوع الهجرة خلال القرنين 16 و17، بل غالبا ما تملك وثائق تتعلّق بقضايا تاريخيّة عديدة، تهمّ القرن 19. وهذه صعوبة تضاف إلى الصعوبات الأخرى المتعلّقة بالموضوع.

أمّا المصادر الإسبانية فإنّها لم تُول عنايتها بالموركسيّين خارج إسبانيا، فبقدر ما توسّعت في استعراض ظروفهم داخل إسبانيا إلى حين خروجهم منها، بقدر ما نجدها تهمل الحديث عنهم تماما وهم خارجها أو تشير إليهم إشارات عابرة.

غير أنّ هذا الفراغ قد مُليء نسبيّا بواسطة مراسلات مدينا سيدونيا مع فيليب الرّابع بشأن أندلسيي الرباط.

وتتعلّق الوثائق الفرنسيّة بالخصوص باستقرار الموركسيّين بفرنسا، وانتقال هؤلاء إلى شمال إفريقيا، وهناك أيضا عدّة تقارير إنجليزيّة بشأن أندلسيي المغرب تهمّ الجهاد البحريّ والأسري.

كما يزخر الأرشيف التركي كذلك بوثائق تهمّ موقف الأتراك من الموريسكيين.

أمّا الدّراسات الحديثة فليست — حسب علمنا — هناك دراسة متكاملة عن الموضوع، بل نجد أنّ جلّ الدّراسات الحديثة تناولت جانبا من الجوانب المتعلّقة بالوجود الأندلسيّ بالمغرب، كأن تتناول علاقة الأندلسيين بقوة سياسية معيّنة، أو تتناول الحديث عنهم في منطقة معيّنة.

صدرنا هذا البحث بمدخل تاريخيّ يتناول العلاقة بين العدوتين ما قبل القرن السّادس عشر، لكي يتأتّى لنا أخذ رؤية متكاملة عن الوجود الأندلسيّ بالمغرب خلال فترة القرنين 16 و17، ذلك أنّ الأبعاد السياسيّة والحضاريّة التي تولّدت عن الهجرة الأندلسية في القرن السّابع عشر لم تكن طارئة، وإنّما كانت تشكّل في نظرنا استمرارا لمرحلة تاريخيّة سابقة، وإن اختلفت عنها في بعض مظاهرها. وقسمنا البحث نفسه إلى ثلاثة أبواب رئيسية:

تناولنا في الباب الأوّل دراسة موضوع الأندلسيين تجاه المدّ المسيحي، وذلك عبر ثلاثة فصول تخص الفترات التي تهم هذه الدّراسة.

فقد تناولنا في الفصل الأول منه وضعية الأندلسيين في عهد الملكين الكاثولكيين، وهي مرحلة حاسمة تتّسم بفرض التعميد الإجباري على المسلمين، ومحاولة إدماجهم في المجتمع الإسباني، وحاولنا في هذا الفصل أن نبرز الدّور الذي قام به الأندلسيّون للدّفاع عن كيانهم بثوارتهم المتكرّرة، وكذلك دور المغاربة في مساعدتهم، وتعرضنا في الأخير إلى

موقف الأندلسيين أنفسهم من مأساتهم. وتناولنا في الفصل الثّاني من هذا الباب موضوع الموريسكيين في عهدي شارل الخامس وفليب الثّاني، إذ عرفت هذه الفترة أحداثا خطيرة نتجت بالخصوص عن إصدار الملكين المذكورين لقرارات مجحفة، كان القصد منها إدماج الموريسكيين في المجتمع الإسباني، لكن عنف المقاومة كان يحول دائما دون تنفيذ هذا المخطط، خاصة أنّ العلاقة لم تعد مقتصرة على طرفين، بل ستتدخل فيها أطراف أخرى من أتراك ومغاربة وفرنسيين، مما جعل الصّراع يكتسي أبعادا أكبر من تلك التي كان يتصوّرها الإسبان.

وتناول الفصل الأخير من هذا الباب موضوع الموركسيين في عهد فليب الثّالث، من خلال التعرض إلى مركزين موريسكيين خطيرين : هما هورناتشوس وبلنسية، ويستمد الأول خطورته من تراثه النّضالي بالمنطقة وامتداد هذا التّراث داخل المغرب، بينما يستمدّ الثّاني خطورته من كثافة سكانه. وختمنا هذا الفصل بقرار النّفي، وآثاره، وكذا الانتقال إلى شمال إفريقيا والظروف التي صاحبته.

لقد حاول الموريسكيون أن يدافعوا عن مصيرهم بإسبانيا، وظلّوا لسنوات عديدة يعيشون تحت وطأة جهاز القمع الإسباني (محاكم التفتيش). لكنهم لم يستسلموا قطّ لمصيرهم المحتوم، بل ظلوا إلى آخر لحظة من وجودهم بالأندلس. معتزّين بتراثهم الحضاري، ويقاومون في سبيل المحافظة عليه. وعلينا أن نشير في نفس الوقت إلى أن مقاومتهم لم تكن اعتباطيّة ولا ظرفيّة، بل كانت تجري دائما في ظلّ معطيات محدّدة، فقد كانوا على اتصال بالمغرب وبالأتراك وبالفرنسيّين من أجل تنفيذ مخططاتهم، غير أنّ أهمّ ما كان يخرج به الموريسكيون آخر كل ثورة قاموا بها هو ضرورة الاعتماد على النّفس، إذ أن جميع الأطراف التي كانت تساعدهم كانت لها ظروفها الخاصّة، وتتصرّف أحيانا طبقا لمصلحتها الشّخصيّة. وتلك تجربة قاسية حملها معهم الأندلسيّون إلى المغرب ليضيفوا إليها تجربة أخرى أفرزها تعاملهم مع المغاربة، وهذا ما حاولنا توضيحه في الباب الثاني من هذه الدراسة عند تعرضنا إلى الهجرات الأندلسيّة إلى المغرب خلال القرنين 16 و17.

وهكذا فقد قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول :

تناولنا في الفصل الأوّل الهجرة الأندلسيّة في العهد الوطاسي، إذ انتقلت إلى المغرب جالية أندلسيّة مهمة في ظل ظروف خاصة، فقد كانت السّلطة المركزيّة ضعيفة بفعل الأزمات السياسيّة والاقتصادية الخطِرَة التي كان يجتازها المغرب.

وكان موقف الجالية الأندلسية متباينا تجاه هذه الوضعيّة :

ــ فهناك جماعات عبّرت عن رأيها صراحة بأنّ الوضعية غير ملائمة لها، وهي بالتّالي تفضل الرّجوع إلى إسبانيا.

ــ وهناك جماعات أخرى فضّلت بالرغم من كلّ ذلك البقاء والتّعاون مع الوطاسيين،

سواء ضدّ البرتغال والإسبان أو ضدّ خصومهم السّعديين.

ـــ وهناك جماعات أخرى على العكس من ذلك، فضّلت أن تعيش في شبه استقلال عن السّلطة المركزيّة، وتدبر أمورها بنفسها.

وقد تناولنا في الفصل الثّاني من هذا الباب الهجرة الأندلسيّة في العهد السعدي الأوّل، إذ حاول الملوك السّعديون في فترة إقبال دولتهم أن يفتحوا الباب على مصراعيه للمهاجرين من الأندلس، ويقدموا لهم كل المساعدات سواء على صعيد العمليّات الجهاديّة أو على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي، بل تعدّى الأمر ذلك إلى تقديم المساعدات للموركسكيين بإسبانيا نفسها رغم المحاولات التي كانت تقوم بها هذه الأخيرة لمنع أيّ اتصال بين الموركسكيين داخل إسبانيا وخارجها. لكن الضغط التركي أفشل الكثير من المشاريع الجهاديّة التي كان الملوك السعديون ينوون القيام بها ضد الإسبان.

والتجأ بعضهم في الأخير إلى البحث في الجانب الآخر لدى المعسكر البروتستاني عن حلفاء جدد يعوضون بهم الأتراك.

وأنهينا هذا الباب بفصل ثالث يتناول موضوع الهجرة الأندلسيّة إلى المغرب في القرن 17، وهي هجرة وقعت في ظروف خاصة : انقسام سياسي على مستوى السلطة، تدهور خطر لحق بالموارد الأساسيّة للمغرب : السكّر والذّهب وتجارة القوافل، إضافة إلى الجفاف الخطر الذي زاد الأزمة الاقتصادية حدّة، ظهور المجاعات والأوبئة التي أودت بحياة آلاف الأشخاص، وأدّت بالتّالي إلى نقص ديمغرافي خَطِر، ودرسنا مدى تحمل المهاجرين الجدد لتبعات هذه الوضعيّة مع المغاربة، وعلاقتهم مع باقي القوات السياسيّة بالمغرب ، وذلك من خلال نقطتين أساسيتين :

الجالية الأندلسيّة بمصب أبي رقراق ودرسناها من خلال ثلاثة مظاهر أساسية:

المظهر الأول : الصراعات الدّاخلية :

وفيه تعرّضنا إلى الصّراع بين الهورناتشيين سكّان القصبة وأندلسيي الرّباط، إذ حاول الهورناتشيون أن يعرضوا أنفسهم على أندلسيي الرباط، فقد كانوا هم وحدهم يكونون أعضاء الدّيوان، كما أن القائد يُختار من بينهم، وكانوا يحتفظون بمجموع مداخيل الجمارك وغنائم الجهاد البحريّ. وقد طالب أندلسيو الرّباط باقتسام السّلطة، لكن قوبلت مطالب الأندلسيّين بالرّفض مما أدّى بهم إلى الدّخول في صراع مرير بينهما.

ـــ وكان هناك صراع آخر بين الأندلسيين والعيّاشي، وقد درسناه من خلال عدة وثائق مغربية وأوروبيّة.

ـــ واستعرضنا في الأخير علاقة الأندلسيّين بالدلائيين.

أما المظهر الثاني فهو يتعلّق بالجهاد البحريّ، وقد قسمناه إلى ثلاثة مراحل أساسية:

المرحلة الأولى وهي مرحلة التنظيم، إذ عرف الجهاد البحريّ فيها ازديادا مطردا، وكان يمارس نوعا ما تحت إشراف السّلطة السعدية.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة الاستقلال التّام عن السّلطة المركزيّة، إذ شكل فيها الأندلسيّون ديوانهم الذي أصبح يمارس اختصاصاته باستقلالية تامّة، وقد امتدّ نفوذهم في هذه المرحلة إلى مسافات بعيدة أدّت بهم إلى الاصطدام مباشرة مع الأوروبيّين.

المرحلة الثالثة: وهي المرحلة التي أصبح الجهاد البحري فيها يمارس تحت أشراف الدلائيين.

أما المظهر الثالث والأخير فيتعلق بعلاقة الأندلسيين بأوربا، فدرسنا العلاقات السياسيّة والتّجارية، كما درسنا محاولات الأوروبيين الاستيلاء على القصبة من خلال وثائق معيّنة.

وتتعلّق النّقطة الثانية من هذا الفصل بالجالية الأندلسيّة بتطوان، وتطرقنا فيها في البداية إلى نقط الخلاف والالتقاء.

ففيما يتعلّق بنقط الخلاف سجلنا الملاحظات الآتية :

ــ حين قدم الأندلسيون إلى تطوان ، وجدوا أمامهم هناك جالية أندلسية مهمّة كانت قد سبقتهم إلى المنطقة، فهيأت لهم بذلك ظروف استقبال أحسن، في حين لم تكن مثل هذه الجالية المهمّة موجودة بسلا، وبذلك لم يحسن استقبالهم.

ــ كان أندلسيو تطوان يعملون تحت قيادة مغربية بعكس أندلسيي مصب أبي رقراق الذين كانوا يقومون بتسيير أنفسهم بأنفسهم.

ــ كان الجهاد البحري بتطوان مركزا أساسيا على البحر الأبيض المتوسّط في نطاق ضيق، في حين كان المجال واسعا بالنسبة إلى مصب أبي رقراق على المحيط الأطلسي.

وبالنسبة إلى نقط الالتقاء سجلنا الملاحظات الآتية :

ــ إنّ سلطة السعديين كانت في كثير من الأحيان اسمية لا غير.

ــ الاقتناع بضرورة تكتل مهاجري الأندلس بالمغرب بل شمال إفريقيا لمواجهة الخصوم الداخليين (المغاربة) والخارجيين (الأوروبيين).

ــ التحفز للرجوع إلى إسبانيا بمساعدة قوات أوروبية معادية لإسبانيا. وعلى العموم فإن المراحل التاريخية للوجود الأندلسي بتطوان تبرز كسابقتها بمصب أبي رقراق في ثلاثة مظاهر أساسيّة:

ـــ الصراعات الداخلية.

ـــ الجهاد البحري.

ـــ العلاقة بالأوروبيين.

لقد حاول الأندلسيون في هذه الفترة أن يتكتّلوا ويخلقوا لهم كيانا خاصا يستطيعون من خلاله أن يفرضوا وجودهم باعتبارهم قوة سياسية وعسكرية لها وزنها بالمنطقة، لكن التجربة آلت إلى فشل يمكن إرجاعه لعدة أسباب منها :

ـــ وقوف السعديين في وجه استقلال الأندلسيين عن سلطتهم، فحتى في فترة إعلان استقلال الأندلسيين (1627–1641) كان هناك ولاء إسمى للسلطان السعدي.

ـــ وجود العياشي كقوة جهاديّة لها وزنها بالمنطقة، وتحفزه المستمر للانقضاض على الرّباط والقصبة، جعل هؤلاء المهاجرين يتوجهون إلى قوات مغربية (السلطان السعدي) أو أجنبية (الإسبان والإنجليز) لحمايتهم.

ـــ القبائل المغربية المجاورة لم تكن ترتاح كثيرا إلى هؤلاء إذ كانت تنعتهم (بنصارى قشتالة)، وتتحين الفرصة للانقضاض عليهم، وبالتالي أصبح الأندلسيون محاطين بأعداء غير منتظرين.

ـــ حذر الدول الأوروبية من التّعامل مع الأندلسيين باعتبارهم سلطة شرعية، إذ كانوا ينظرون إليهم كقراصنة، يجب تصفيتهم ومراوغتهم، وفي أحيان كثيرة يحاولون التفاهم مع السلطان السعدي.

ـــ السبب الأخير وهو وليد جميع الأسباب السابقة : التفكير المستمر في الرّجوع إلى إسبانيا، إذ أنّ وجودهم بالمغرب اعتبر دائما مرحلة مؤقتة، وظلوا ينتظرون باستمرار الظرف الملائم.

وإن لم يتحقّق الوجود السياسيّ للأندلسيّين بالمغرب، فإنّ وجودهم الحضاري ظلّ مستمرّا إلى اليوم، وكوّن ما أصبحنا نسميه بالحضارة الأندلسية المغربية، وقد كان هذا هو موضوع الباب الثّالث والأخير.

وقد قسمناه إلى فصلين : تعرضنا في الفصل الأوّل منه إلى الميادين التي ساهمت فيها الجالية الأندلسيّة بالمغرب، وبالأخصّ الميادين الاقتصاديّة والعلميّة والسياسيّة والاجتماعيّة، معزّزين ذلك بنماذج معيّنة. وتعرضّنا في الفصل الثّاني من هذا الباب إلى مراكز الاستقرار، ونشير هنا إلى تنوّع هذا الاستقرار، إذ لم يقتصر على مناطق معيّنة، بل شمل مناطق عديدة من أقصى شمال المغرب إلى أقصى بلاذ سوس، واخترنا سبعة نماذج لهذا الاستقرار. وقد استعرضنا من خلال ذلك بعض العائلات الأندلسيّة المستقرّة بهذه المراكز. وكذلك

بعض مشاهير الأندلسيّين الذين نبغوا في مختلف الميادين العلميّة والأدبيّة والدينيّة.

واستعرضنا في الأخير النتائج التي وصلنا إليها، ويمكن تلخيصها فيما يأتي:

أولا: ظل أفراد هذه الجالية في هذه الفترة ـــ ورغم كل ما حصل ـــ يعتبرون أنفسهم في دار هجرة مؤقتة ويتحينون الفرصة للرجوع إلى وطنهم المفقود.

ثانيا: ظل هؤلاء يشكّلون فئة اجتماعية متميزة، فهم يسكنون أحياء خاصّة بهم، ولا يميلون إلى الاختلاط بغيرهم، وهم يعتزّون بأصلهم الأندلسيّ الذي يثبت شرف نسبهم.

ثالثا: كان أفراد هذه الجالية أكثر إقبالا على الميدان العلميّ من الفئات الاجتماعيّة الأخرى، فقد برعوا في ميادين الحساب والهندسة والفلك والطبّ وهي ميادين تمكّنهم من رتب رفيعة في سلّم التّركيبة الاجتماعيّة المغربيّة.

رابعا: عرف الكثير من أفراد هذه الجالية حماسا دينيّا جارفا على مستويين:

ـــ مستوى خدمة المتصوّفة وعلى مستوى الجهاد، ويمكن تفسير سلوكهم هذا بكونهم كانوا يريدون استخدامه حجّة لمواجهة المغاربة الذين كانوا يتهمونهم بأنهم فرطوا في وطنهم بسبب إهمالهم لواجباتهم الدينية، وعدم اهتمامهم بالجهاد، واشتغالهم بالتطاحن فيما بينهم.

خامسا : أصبح أفراد هذه الجالية يشكلون فئة اجتماعية بإمكانيات اقتصادية مهمة تستطيع من خلالها أن تفرض نوعا من النّفوذ على باقي الفئات ذات الإمكانيات المحدودة، ممّا أثار مواجهة بينها وبين هذه الفئات.

سادسا: لعب أفراد هذه الجالية أدوارا سياسية مختلفة في فترات القرنين السادس عشر والسابع عشر، بحيث أصبح دورها بارزا سواء باعتبارهم مستشارين أو سفراء أو جنود، لكن الأخطر من كل هذا هو أنه في مرحلة ما من القرن السّابع عشر كانوا يفكرون في خلق كيان مستقل لهم داخل المغرب، وهذا مال لم يحدث في الجزائر أو تونس.

سابعا وأخيرا: لم تلبث هذه الجالية أن فقدت هذا التفوق الحضاري والسياسي، وبدأت تندمج مع باقي أفراد المجتمع المغربي، وذلك انطلاقا من أواخر القرن السّابع عشر.

تلك كانت أهمّ الخلاصات التي يمكن الخروج بها من خلال التأريخ لمراحل هذا الوجود الأندلسيّ بالمغرب، وهي خلاصات يمكنها أن تتّضح أكثر إذا ما اتّجه البحث مستقبلا إلى دراسات مونغرافيّة، إذ أنّ إنجاز أبحاث تتعلّق بالوجود الأندلسيّ بمنطقة معيّنة (سياسيّا وحضاريّا) سيساعدنا على أخذ صورة متكاملة ودقيقة عن هذا الوجود بتلك المناطق.